تعريف بالكتاب

يروى عن الفيلسوف المتشائم « شوبنهور » أنه كان يتردد على مطعم فى ميناء يغشاه ضباط السفن البريطانية فى رحلات المناورات السنوية التى يجرونها فى البحر البلطى ، ولاحظ خادم المطعم أن الفيلسوف كان يخرج من جيبه قطعة ذهبية يضعها فى صحفة خالية أمامه الى أن يفرغ من طعامه فيعيدها الى جيبه ثم ينصرف الى طريقه ، وتكرر ذلك منه أياما متوالية ، فألح الفضول على الخادم أن يسأله عن معنى هذه الحركة التى لم يفهمها ، فلم يبخل عليه الفيلسوف بسره وقال له : انه انما يراهن نفسه أن يبذل هذه القطعة الذهبية صدقة لأول بيت من بيوت الاحسان يصادفه بعد خروجه من المطعم ، اذا سمع هؤلاء الضباط مرة واحدة يتكلمون فى شىء غير الخيل والنساء وكلاب الصيد ، ولكنه كان يخسر هذا الرهان ـ أو يكسبه ـ بعبارة أخرى كل يوم .

فاذا كان حديث الحرب يتشعب علينا فلا نحصره ، فقد نحصر أحاديث المحاربين فى هذه الميادين الثلاثة : ميدان الفروسية ، وميدان الحب ، وميدان الصيد ...

ذكرت شوبنهور وقصته حين قرأت فى حوار النقاد كلمة الأستاذ بريزون عن رواية ستندال : « انه يرى من الغريب وضعها فى قائمة كتب عن الحرب والسلم . فان الكتاب ـ فيما يبدو ـ يتناول الحب أكثر مما يتناول الحرب ! » .

ولا ينسى الأستاذ بريزون أن الكتاب قد اشتمل على وصف خارق للمعركة ، ولكنه يشتمل فيما عدا ذلك على ضروب الحرج التى يقع فيها

الشباب ، وعلى ضروب شتى من المتاعب التى تسوقه اليها تجارب صـــباه .

والواقع أن جو الحرب يحيط بكل نوع من أنواع المتاعب والمغامرات التى وصفها الكاتب فى الرواية ، ومنها متاعب الحب ، ومتاعب الطموح ، ومتاعب الصيد بشتى معانيه ومقاصده . وقد تعاقبت هذه المتاعب وتشابكت أوائلها بأواخرها ذلك الاشتباك الذى يجيز للأستاذ بريزون أن يصفه بالافراط فى التعقيد والاطالة ، وأن يقول عن بعض مواقف الرواية أنها « ميلو درامية » متطرفة ، ويعنى بالميلو درامية ما يفهم من هذه الكلمة فى اصطلاح النقد المسرحى ، وهو الاكثار من ضجيج الحوادث والمبالغة فى التعويل على المغامرات والمصادفات . ولكن زميله الأستاذ بولدنج على حق أيضا حين يقول : « ان المصادفات فيها غاية فى الرزانة على الرغم مما بها من اغتيالات ومبارزات وحوادث خطف وهـروب وعدد كبير من مناظر الشرفات » . وهو أحق من ذلك حـــين يقول متحديا : « اننى أتحدى كائنا من كان على وجه الأرض أن يلخص العقدة دون أن يلخص مغزاها ... فالشىء الذى فعله ستندال فى براعة تفوق من عداه أنه لم يبد قط مضحكا أو ساذجا ، وأنه استطاع أن يحكى مثل هذه الحكاية المعقدة غير العادية دون أن يكون مثيرا للسخرية » .

وذلك حق فى أمر ستندال دون غيره من كتاب الرواية فى عصره . فانه قد يستحق النقد لأنه يجرى على هذا الأسلوب المدرسى أو ذاك . وقد يقال عنه بحق فى كثير من الأحيان انه يخالف المدرسة الاتباعية أو الابتداعية أو الواقعية ، ولكنه لا يرمى بالتكلف المصطنع فى حال من هذه الأحوال ، لأنه اذا وقع فى « الميلودرامية » خلال هذه القصة الطويلة لم يقع فيها لأنه يحاول أن يحكى الكتاب المشهورين بهذا النمط فى تأليف القصة ، بل هو يكون « ميلودراميا » باختياره أو على الرغم منـــه حين يكون الموضوع كله « ميلودراميا » كما خلقته الحوادث واستلزمته طبيعة الزمن ... ومن الذى يستطيع أن يتجنب مناظـــر الجلبـــة

والضجيج فى حوادث قصة تستغرق السنين بين حروب نابليون ومؤامرات الأسر والعروش فى البلاد الايطالية ومكائد السياسة والجاسوسية بين أنصار الحكم الموروث وأنصار الثورات ودعاة المبادىء على دين المحافظة والتقليد ودعاة المبادىء الأخرى على دين التحرر من جميع تلك التقاليد سواء فى شرعة الرأى أو شرعة الخلق أو شرعة الذوق والفن أو شرعة المعرفة والتفكير ؟

لقد كانت وقائع الحب والمناجاة أشبه شىء فى ذلك العصر بوقائع السبى والغنيمة ، وكاد أسير الحب يومئذ يكون كأسير الحرب حسا ومعنى ، ولا بد أن يكون كذلك اذا اشتبكت علاقات الحب بين عشاق على سنة النبلاء ، ونبلاء ينتسبون بشطر من حياتهم الى عصور القلاع والضياع ويستقبلون بالشطر الآخر عصر التحرير من النظام القديم old regime.

بل لابد أن يكون الحب ابتداعيا وواقعيا ، أو رومانسيا وطبيعيا ، اذا اشتبكت علاقاته بين فرنسا وايطاليا ، واحداهما فى عصر الثورة ، والأخرى فى عصر البيوت المتداعية على عروشها وفى عصر الوحدة الوطنية بين أجزائها ... ومن حق بولدنج أن يتحدى من شاء أن يسوق حوادث الحب والقطيعة ، وحوادث الحرب والسياسة ، وحوادث النخوة والخلاعة ، وحوادث النقائض جميعا فى هذه الحياة على غير النسق الذى ساقه ستندال ، واستحق به أن يتلقى النقد فى اصطلاح هذا المذهب أو ذاك من مذاهب القصة ومذاهب الأدب على العموم .

* * *

فاذا كان ستندال ينساق أحيانا من الوصف والقصص الى خطة لا تجرى على هوى النقاد من أنصار المذاهب الفنية ، فالأمر المحقق أنه لا يتكلف شيئا ليخالف هذا المذهب أو يوافق مذهب غيره ، وأنه يرسل نفسه على سجيتها فى تصويره موضوعه وشخوصه . والعيب

فى الموضوع وفى الشخوص اذا اختلف عليهـــا حكم الأذواق وخفت أو ثقلت فى موازين الأدب والفن ... ويتفق كثيرا أن يكون ستندال نفسه هو النموذج الفنى الذى ينقل عنه صورة بطل الرواية أو يسند اليه نادرة من نوادرها . وفى هذه القصة التى نحن بصددها يتشابه ستندال وبطلها الشاب (فابريزو دل دونجو) فى علاقة كل منهما بأبيه، وفى تمرد كل منهما على مشيئة الأب المعروف بصرامته فى تقرير سلطانه وشدة محافظته على تقاليد أسرته وتقاليد جيله على اجماله ، وكلاهما ينزع الى التمرد والثورة من أجل ذلك ويتمثل روح الثورة فى شخص نابليون بونابرت ، فلا ينظر اليه كأنه الامبراطور الحاكم المسيطر على رعاياه ، بل ينظر اليه كلاهما كأنه الثائر المحطم لأصنام النظام القديم المتجبر على جبابرة العروش الموروثة وخلفاء الأسر العريقة التى سيطرت على الأقطار الأوروبية قبل أيام الثورة الفرنسية .

ولا شك أن هذا التمرد على السلطة القائمة كان يكمن وراء نزعة الاستقلال فى سليقة الكاتب الفنية ، ويبعث فيه النفور من التقيد بقيود المدارس الأدبية ، فلا يطيق الانتماء الى مدرسة منها . ولايزال فى كتابته ونقده لكتابات غيره متجها الى السليقة المستقلة حيثما ظهرت فى فيض العبقرية الخلاقة منطلقة من أوضاع العرف المتفق عليه .

فهو يتساءل فى مقارنته بين المدرســـة الاتبـاعية Classic والمدرسة الابتـــداعية Romantic ، ترى ما هو معنى المدرسة الابتداعية الا أن يكتب الكاتب ما يوافق أذواق معاصريه ؟ وما معنى المدرسة الاتباعية الا أن يكتب ما كان يوافق الأذواق فى زمان أسلافه ؟

فليست المدرسة الاتباعية على أحسنها فى ابان عهدها خطة تتبع على منهج التقليد والمحاكاة ، ولكنها كانت هى التعبير الصادق عن طبيعة أبناء العصر بغير كلفة ولا انقياد لقانون موضوع ، فاذا طرأ عليه التكلف والانقياد فقد أصبح من فروض « السلطة » الأدبية التى يتبرم بها عدو السلطة وعدو الخضوع من كل نوع !

ويهم الناقد أن يسلك ستندال بين أتباع المدرسة الابتداعية (الرومانسية) فيستقيم له الطريق معه على هذا المنهج الى شوط بعيد ، ولكنه لا يستقيم له الا فى المواطن التى يكون فيها ستندال « رومانسيا » بطبيعته وطبيعة عمله وشعوره ، وليس بالرومانسى على منهج المذهب فى آراء نقاده ومتبعيه . وقد نجده على جانبى الطريق من هنا وهناك عمليا من غلاة الواقعيين الطبيعيين ؛ لأنه فى الواقع لم يكن « رومانسيا » محضا فى زمنه ولا كان الزمن نفسه زمن الرومانسية المحض فى الأدب ولا فى أحوال المعيشة ، بل كان ستندال رائدا للمستقبل على قنطرته الوسطى بين « رومانسية » المغامرات والطموح ، وبين « واقعية » القرن التاسع عشر الذى بدأت فيه أنظمة المعيشة الصناعية ومعارك الصراع بين الديمقراطية والمثالية على منهج الرومانسيين سلالة النبلاء ، ومن بقاياهم ستندال وبطله فابريزيو فى هذه الرواية !

وتلك هى المثالية التى لاحظ بولدنج فى حواره أنها كانت « عظيمة » فى الشاب الايطالى ، ولكنه لم يعد اليها بقية حياته ، وتساءل : « هل عادت هذه المثالية للظهور ثانية فى صورتها النقية لحظة واحدة خلال الكتاب ؟ » .

ويصدق القول فى هذا على مثالية ستندال قبل أن يصدق على بطله الايطالى فى أوائل صباه أو أخريات حياته . فانها مثالية لا يستمليها الكاتب من « مثال » مرسوم يفرضه عليه المتقدمون أو المعاصرون . ولكنها مثالية الواقع التى يراها أمامه رأى العين فى شخص بطله التاريخى المحسوس نابليون ... وكل مالها من صورة نقية تعود أو لا تعود فهى صورة المثالية كما كان يعتقدها نابليون ، وكما كان « يعملها » فى سياسته وفى طموحه وفى خلجات نفسه وضميره . ولم يكن نابليون يحلم « مثاليته » حلما فى الخيال ، وانما كان يعملها عملا فى وقائعه وأقواله ، وفى ظواهره وخوافيه .

وكذلك كانت « مثالية » ستندال .

وهكذا يقرر ستندال مكانته فى عالم الأدب ويصف لنا « شأنه » بين شئون الفن والنقد ، ومن ورائها شئون الفكر والشعور .

فالمهم فى تقدير ستندال أنه خير مثل لتوضيح الحدود القائمة بين مذاهب الأدب ومدارسه وبين الشخصية الخلاقة التى لا تنعزل عن المذهب ولكنها لا تتبعه اتباع التقليد والخضوع .

فالمذهب ينسب الى الشخصية الخلاقة ولا تنسب هى اليـــه ، والمذاهب انما تنتقل من طور الى طور مع أمثال هذه « الشخصية » التى ترسم لها المبادىء والنهايات ، كما ترسم لها قنطرة العبور بين أواخر العهد وأوائل العهد الذى يليه .

وقد كان ستندال يعرف « التمذهب » ولا يصنع الفن صنع الغريزة كما قيل عن صناعة النحل للبناء الهندسى ، وصناعة العنكبوت لخيوط النسيج .

كان يتمذهب ويضع القواعد للفنون المختلفة بين التصوير والموسيقى والدراسات النفسية التى كان من روادها الأولين ، ولم يكن « تمذهبه » مقصورا على الرواية ، ولا على سلوك الحياة ، ولكننا اذا رجعنا الى مذاهبه جميعـــا لم نجـــد فيها رأيا يسرى مع كل رأى غير « طابع الشخصية » الذى انطبع عليه ســـتندال . وكل فلسفاته فى الحب أو الفن أو السياسة فانما هى عمـــل فيلســـوفها فى غرامه وكتابته ومغامراته ، يتمثل آخر الأمر فى « شخصية » معروفة فعلت هذا وذاك ، ولا يهم ماذا رأت فى هذا وذاك .

عباس محمود العقاد